مشكلة التراث والتقدم

بقلم غالب هلسا

نقلت مجلة الكاتب في عددها الصادر في يناير ندوة تحت عنوان (دور الفكر في المجتمع الاشتراكي) شارك فيها كمال رفعت ، محمود العالم ، ابراهيم سعد الدين ، كامل الزهيري ، رجاء النقاش ، احمد عباس صالح ، سامي داود . وقد تركز الجزء الاكبر من الندوة حول التراث وموقفنا منه .

وقد برز في هذه الندوة اتجاهان :

الاول ـ هو ما عبر عنه السيدان كمال رفعت وابراهيم سعد الدين.

يقول السيد كمال رفعت (... المستقبل هو الذي يحدد لنا طريق التطور . ان المجتمعات الانسانية في تطور مستمر . ونحن اذا اكتفينا بالنظر الى الماضي وامجاده الغابرة فلن نستطيع ان نتحرك الى الامام ، وقد فشلت ثورات كثيرة لهذا السبب لانها بدلا من ان تتطلع الى المستقبل كانت تلتفت الى الماضي . وهذا كله يؤكد امامنا ضرورة الاهتمام بالماضي في حدوده مع الحذر من التشبث به والوقوع في أسره ...)

ثم يضيف السيد كمال رفعت نقطة ذات اهمية بالغة (وهناك آية في القرآن تقول « لكل اجل كتاب » وقد فسر بعض العلماء هذه الاية بمعنى : ان لكل شخص شريعته) .

وأشار الدكتور ابراهيم سعد الدين الى مسألة أقلمة الفكر الاشتراكي لواقعنا ـ هذه المشكلة التي اتخذها ويتخذها الكثير ستارا للهجوم على الفكر التقدمي والدعوة الى نظرية مقيتة في التعصب القومي والديني ـ ووضعها الدكتور في وضعها الصحيح والحقيقي دون خداع او تزييف . قال ان المسألة ليست مسألة استيراد افكار من الخارج ، ولكنها مشكلة استخدام المنهج العلمي في محاولة حل المشاكل الواقعية ، وانه من خلال العمل نفسه يتأقلم الفكر مع المشكلة الواقعية.

اما الاتجاه الثاني فهو قريب من الاتجاه الذي ساد في فترة سابقة . ويمكن تلخيص هذا الاتجاه في ثلاث نقاط : اننا لسنا اشتراكيين تماما ، وهو ما يعبر عنه باقلمة الفكر الاشتراكي لواقعنا من خلال تراثنا . النقطة الثانية : اننا كنا اشتراكيين دائما منذ بداية تاريخنا حتى الان . النقطة الثالثة : لتأكيد هذا عمليا فعلينا ان ننظر الى التراث نظرة نفعية ، ونلونه بلون دعائي فنأخذ منه ما يخدم اهدافنا في المرحلة الحالية ، وندع جانبا ما يتعارض معها .

وبكلمة اخرى فان المطلوب هو تقديم الافكار الاشتراكية والتقدمية في اطار من التقاليد والقيم الوراثية ـ اي باشكال قديمة . فالافكار الاشتراكية كما يقول الاستاذ محمد عودة (... محتاجة الى « اقلمة » والى « تمصير » او « تعريب » او تطوير خلاق لهذه الافكار ... انها محتاجة للترجمة الى لغة يمكن ان تصل الى الفلاح والعامل ومختلف طبقات الشعب حتى تستطيع ان تفهمها وتعتنقها) .

ويقول الاستاذ احمد عباس صالح « ... ولقد تجاهل المفكرون الاشتراكيون هذا الاتجاه في المخاطبة من خلال التراث الفكري لهذه الجماهير ، وظلت اصطلاحات المثقفين اجنبية غريبة على الشعب ...).

ولكن هل يتفق هذا المنهج مع الاسلوب العلمي ؟ هل الاسلوب العلمي معناه في هذه الحال تقنيع المضامين الاجتماعية الفكرية الجديدة باشكال قديمة ؟

ان الاسلوب العلمي يؤكد ان المضمون الجديد هو نفي للمضمون القديم ، وان الاشكال القديمة لا تصلح للتعبير عن مضامين جديدة . ان التشابه بين المضمونين والشكلين القديم والجديد ، والتماثل بين مواقف قديمة وحديثة (كاشتراكة ابي ذر الغفاري كما يسميها البعض، والاشتراكية العلمية مثلا) هو تشابه ظاهري وشكلي من الواجب تعريته وتوضيحه . ان الظروف الجديدة هي نفي للظروف القديمة ، وبالتالي فان جميع الكيانات الفوقية ـ الفلسفية والادبية ومناهج البحث ، والافكار السائدة والعادات والتقاليد الخ ـ الجديدة هي نفي للكيانات الفكرية القديمة . وهذا ما علينا ان نؤكده ولا نخفيه .

اننا نزاول عملية تزييف وخداع عندما نقول ان الافكار والقيم الاشتراكية كانت دائما موجودة بيننا . في مثل هذه الحال فاننا نفتح ابوابنا على مصراعيها لليمين لان يحول الاشتراكية الى قشرة خارجية . كما ان ذلك يجعل القيم والافكار الجديدة معرضة للاختناق وسط ضباب الاشكال القديمة . وهذا ما سنعود اليه بعد قليل . لنأخذ مثالا بسيطا على ذلك وهو التنظيم الشعبي القائد والموجه وبالتالي الحاكم . ماذا يضع التراث مقابل ذلك ؟ لقد قدم التراث اجابته التي توصل اليها بعد ان فشلت جميع الاشكال الاخرى من التنظيم والتي نعرفها معرفة جيدة وهي البيروقراطية . فهل ندعي ـ مثلا ـ ان التنظيم الشعبي هو مجرد شكل من اشكال البيروقراطية حتى نضمن نجاحه ؟

اعتقد انه لا خلاف ان علينا ان نؤكد عكس ذلك تماما .

لنأخذ مثالا من مناقشات الندوة المذكورة وهو اعتبار الحضارة الاوروبية امتدادا للتراث اليوناني والروماني . لقد بدأ الفن التشكيلي الاوروبي متأثرا بمقاييس الفن التشكيلي اليوناني ـ الروماني . ولكنه سرعان ما انفجر ليعبر عن شخصية البورجوازي بوهمه الذي رافقه بانه مركز الكون . ان عصر الرومانسية قدم لوحات ينتفض فيها الانسان عملاقا ضخما دافعا كل ما حوله الى مركز ثانوي .

عندما خلق البورجوازي ذلك العالم الرائع اكتشف واقعه المفزع. لقد اصبح عبد الالة التي خلقها ، عبد حركتها المهدلة الواثقة .

لقد عبر فان خوخ عن الوحدة والارهاق اللذين يطبعان العامل ، كما أن الاشياء بدأت تتصف بثقل كابوسي يجوس بينها الانسان حائرا ضعيفا مهزوما .

وبلغت هزيمة الانسان اقصاها في الرسم الحديث ، فاصبح ذلك القزم المتشنج الوجه المتوتر اليدين الذي يجاهد بلا جدوى للوصول الى طبق الفاكهة الموضوع على مائدة الطعام في صورة دالي ـ اصبح مشوه الخلقة ، ممسوخ الملامح ، ملتصقا على صخور سوداء قد نبتت عليها الطحالب كبقايا ثوب قديم .

ان الوهم السريالي الهادف الى تحطيم كابوسية العالم الخارجي من خلال تحطيم احساسنا بموضوعيته ـ غرفة جلوس في داخل بحيرة ، قطع السكر التي تطفو على سطح كوب الشاي والملاعق التي تذوب في كوب الشاي الخ ... ـ او الوهم الوجودي باعتبار الانسان مركز الكون الذي يعطي المادة معناها لم يغير شيئا من واقع الانسان ومن كابوسية عالمه .

وفي المسرح نرى انه ابتداء من شكسبير ـ الوحش المهدد لقيم الحضارة كما كان يسميه فولتير ـ الذي حطم الاسس الارسطية للمسرح ، والذي عبر عن البورجوازي في قمة وهمه واعتداده الى بكيت الذي اخرج الانسان من المجتمع ووضعه في الكون ، نجد التعبير الكبير الكامل عن بداية عصر البورجوازية وانتهائه .

وحتى الدين تحول من الكاثوليكية على يد كالفن ولوثر الى دعوة لتكديس المال والسعي المستمر للثراء .

على أي شيء يدلنا هذا ؟

يدلنا هذا على ان فهم الحضارة الاوروبية لن يتأتى من خلال اعتبارها استمرارا للحضارة اليونانية ـ الرومانية (وهذا الفهم يمكن ان يبدو صحيحا اذا اكتفينا ببعض المقارنات الخارجية) ولكن على اعتبار انها نفي لهما . آن هذا يجعل فهمنا للحضارة الاوروبية اشد عمقاوواقعية

وهذا يقودنا الى فكرة الاصالة . لقد اعتاد البعض ان يربطوها بنوع من النبات والتحجر فيما يتعلق بالتمسك ببعض الاشكال الورائية. فمن هو الصيني مثلا ؟

انه انسان ذو عيون منفولية ، منحرفة الى الاعلى قليلا ، يسكن بيتا من البيوت ذات الهندسة الغريبة التي نشاهدها في الصور ، ملابسه وقبعته مميزة ، وهو شديد التأدب الى حد الاضحاك :

انا ووتن ، الحشرة الحقيرة التي نالت شرفا عظيما عندما اتيحت لي فرصة مصافحة يدكم النبيلة .

وعندما يأتي موضوع الصين فلا بد ان تروى هذه الحكاية :

ارسل احد طلاب المدارس الابتدائية مقالا الى اكبر صحيفة صينية، فرده رئيس التحرير مع رسالة يقول فيها : يا اعظم كاتب على مر العصور وا لدهور . لقد بلغ مقالك حدا من الروعة جعلني امتنع عن نشره خوفا من ان يطالبني جلالة الامبراطور بأن تكون جميع مقالات صحيفتي المتواضعة على هذا المستوى من الروعة .

ولكن الصيني قد خلع ثيابه التقليدية واصبحت مدنه شبيهة بالمدن الاوروبية وتخلى عن أدبه المضحك . حتى اوبرا بكين تخلت عن تقاليدها التي استمرت ما يزيد على الف عام لتقدم اشكالا جديدة . فهل فقد الصيني اصالته ؟

في الوقت الذي اخذ فيه الصيني يفقد طابعه المميز ـ الظاهري ـ وتحطمت الاشكال القديمة في الفنون والادب والمجتمع تفجرت اصالة جديدة باستطاعتنا أن نميزها بسرعة ، كما ان فعاليتها واثرها قد تخطيا حدود الصين .

واذا انتقلنا الى الفكرة التي كثيرا ما تثار وهي قضية الاصالة في الفن فاننا نجد الرأي الذي يقول ان اعتمادنا على اوروبا في استيراد اشكالها الفنية قد افقدنا الاصالة وجعل فننا خاليا من كل تفرد وعمق ولذا فان علينا ان نعود الى تراثنا حتى نخصب فننا بلون وطعم جديدين .

اما كون فنوننا ـ في الغالب ـ خالية من الاصالة والتفرد ، كونها تفوح برائحة النقل والمسخ ، فهذا صحيح ، ولكن سبب هذا لا يعود الى تاثرنا باوروبا ، بل بالعكس ، بسبب كون رؤيتنا للجديد تبدو دائما من الاشكال القديمة .

ان ايراد مثال ربما اوضح ما اريد قوله .

عندما كنت اشاهد فلم « سجناء التونا » المبني على مسرحية سارتر المسماة بنفس الاسم ادهشتني تعليقات المتفرجين وفهمهم للفلم. فقد وضع الجمهور ابطال الفيلم في المثلث الشائع في الافلام المصرية ـ الحبيبان والعواذل ـ فالسجين يقع في حب زوجة الاخ والاخت تقوم بدور العواذل الذين يفرقون دائما بين قلبين يجمع بينهما الحب .

ولذا كان الجمهور يقابل ظهور الاخت على الشاشة بالشتائم والتصفير ، وتنتشر تعليقات الاستحسان والتعاطف عندما تلتقي زوجة الاخ بالشاب السجين .

ولكن خيبة امل الجمهور فاقت كل حد عندما اخذت الاحداث تتخذ اتجاها مخالفا لما تعودوا (انهزام العواذل وزواج الحبيبين) . وبعد انتهاء الفليم كنت اسمع التعليقات تتردد :

الفيلم دا مقلب ، اية الكلام الفارغ دا ؟

وهكذا انزلقت احداث الفيلم ودلالاته على سطح التكيف الذي خلقته السينما المصرية لسنين طويلة ، ولم يستطع الجمهور ان يتذوق ويعاني الرؤية الجديدة والفهم الجديد اللذين قدمهما الفيلم .

ان اصالة الفنان تستمد من قدرته على الرؤية الجديدة من خلال فهم جديد والتعبير عنها بشكل جديد . ولهذا تتميز الاصالة الفنية بالبراءة والتلقائية : أنني أرى ما حولي كأنه يحدث للمرة الاولى ، كأنني اول من رآه . ولذا عليه أن يصارع اللغة والشكل ليصل الى تلك الطزاجة .

وفي هذا بالذات تكمن رسالة الفن : القدرة على نقل الدهشة والجدة في احداث الحياة الجارية .

فلو أخذنا اللغة كاداة فانها عندما تعبر عن شيء ما ، فانه بالامكان ان يمر ذلك الشيء وكأنه يحدث دائما ولا يثير اي انتباه . ان الفنان الحقيقي هو الذي يجعل ذلك الشيء يعيش من جديد ، يكشف ابعادا وعلاقات لم نكن نحس بها . اننا بهذا نوجده من جديد . وهذا يصبح خطوة للامام في سبيل السيطرة عليه . وبهذا فاننا نضيف الى اللغة ونثريها .

ان سيطرة الانسان على الطبيعة ترتبط بقدراته الذهنية واسلوب رؤيته وهذا يتكيف الى ابعد حد باللغة التي يستعملها .

ان انتصار النظام الجديد والفكر الجديد لا يتم بالخدعة . لا يمكن ان نقنع الانسان بانه ما يزال يعيش في العصر الاموي او صدر الاسلام ثم نفاجئه بالاشتراكية وقد تمت دون ان يدري . ان تحقيق الاشتراكية عملية معقدة ومضنية يجب ان يشارك فيها الشعب بكامل وعيه (ان اسلوب ستالين في تحقيق الاشتراكية بالارغام ودون ان يأخذ في الاعتبار انها قضية الشعب بمجموعه قد تكون احد الاسباب التي جعلته يخلق تلك البيروقراطية البوليسية الرهيبة) .

وهذا يتطلب ان نوضح بالحاح للشعب ان شيئا جديدا ، شيئا يشكل ايضا مطلقا للماضي ، يحدث . أن اضفاء الاشكال القديمة على شكل الملكية الجديد والتنظيمات الجديدة ينزع عنها قدرتها على تفجير كيانات المجتمع القديم التي ما تزال تعيش بيننا .

ان الموقف المتخاذل ، الوسط ، من الجديد لا بد ان يؤدي الى سيطرة اليمين الفكرية وبالتالي السياسية والاقتصادية . ولا شك ان المفكرين الذين اشتركوا في الندوة يلاحظون نمو وتضخم الفكر اليميني وتزايد فعاليته تحت اغشية رقيقة لا تغطي مطامعه وتطلعاته . وهو ينطلق من نقطة قريبة مع الاسف من النقطة التي تبناها بعض الذين شاركوا في الندوة ليصلوا بها الى نتائج مختلفة . انهم يبدأون بالقول صراحة اننا في حقيقة الامر كنا دائما اشتراكيين ومؤمنين بالوحدة العربية ، منذ بداية تاريخنا حتى الان . ثم ينتهون ـ وذلك يتم بطرق ملتوية خبيثة ـ انه اذا لا داعي للاشتراكية .

ولكن قد يعترض البعض قائلا ان عددا كبيرا من الرسامين الحديثين قد اصبحوا يستعملون اشكالا فنية موغلة في القدم ، كالتصوير الافريقي . كما أن هذا يحدث في كثير من الفنون الاخرى كاستعمال اشكال ادبية قديمة ، او بعث الرقصات والاغاني القديمة . ولكنهم يعترفون في الوقت ذاته ان تلك الاشكال المندثرة تطور .

ان كلمة تطور قد اصبحت كلمة خداعة لانها قد تعني اكثر من شيء واحد . بل قد تعني شيئين متناقضين : تأكيد الاشكال القديمة من خلال تطوير بعض جوانبها ، او رفض الاشكال القديمة والاستعاضة عنها باشكال جديدة .

ان ما يصنعه الفنان الحديث هو ان يجعل بعض اشكال التعبير القديمة بعض عناصر عمله . ان عملية تركيب ومزج تتم لتنتج كلا جديدا متكاملا .

***

ما هي دلالة هذه النظرة النفعية للتراث ومن اين تنبع ؟

ان منشأ هذه النظرة هو الفكرة الحرفية التي اصبحت احد مكونات البورجوازي الصغير في مجتمعنا . ان فكرة الحرفي عن العالم تنبع من اسلوب انتاجه الذي يتصف باستعمال مهارته في تطويع الاشياء لمنفعته الانية والمباشرة ولذا فرؤيته دائما جزئية وانية وتفتقد الشمول والكلية .

عندما نطبق هذه النظرة على واقعنا نجد انها تتمثل في تفضيل الدعاية ـ التي تخدم اهدافا انية وقريبة ـ على الثقافة ، وفي تفضيل

أستعمال الاساليب البيروقراطية على الاساليب الديموقراطية . انها نوع من الميكافيلية الحديثة التي تبدو ابرز مظاهرها ـ حتى على نطاق عالمي ـ التناقض الصارخ بين الاساليب المستعملة والغاية النهائية .

لقد أضاف بعض الاشتراكيين تفسيرا بالغ الاهمية للظاهرة الستالينية عندما أرجع قيامها الى انعكاس الشخصية الابوية المرافقة للانتاج الحرفي الصغير الذي كان منتشرا في روسيا قبل الثورة وفي انتصار هذه العقلية على عقلية الطبقة العاملة . وفي هذا المجال تبدت قدرة لينين الفذة وبعد نظره عندما أوضح الخطورة الكامنة في الانتاج الصغير وكيف أن مكافحتها تستلزم جهدا ومعاناة يزيدان كثيرا عن الجهد المبذول لمكافحة البورجوازية الكبيرة والاقطاع .

والواقع ان عقلية البورجوازي الصغير تشكل تعقيدا خطيرا في المجتمع العربي ولكن المجال هنا لا يتسع لشرحها ولذا فسنخصص لها مقالا منفصلا .

المهم ان ظاهرة العقلية الحرفية في المجتمع الاشتراكي تتميز بخاصيتين رئيسيتين :

الاولى : الاخلاص للاهداف الاشتراكية .

الثانية : عدم الثقة بأن الشعب قادر على تنفيذ هذه الاهداف .

وهذه هي بالضبط فكرة الوصاية التي هي تعبير عن طابع الشخصية الابوية الملازمة للانتاج الحرفي الصغير .

ان معاملة الشعب في هذه الحال معاملة صبي الحرفي . انه يتعلم مهارات صغيرة متناثرة في كل يوم قبل ان يكون فكرة كلية عن الحرفة . والمعلم صاحب الحرفة ـ الحداد ، الحلاق ، النجار ، الصائغ الخ ... ـ قد اكتشف ان خير وسيلة لتطويع الصبي هو اسلوب الصفع والضرب (والمعلم قد يكون في احيان والد الصبي او صديق والده الذي يرجو صاحب الحرفة أن يخلص في تعليم ابنه واستعمال العنف هو اهم مظاهر الاخلاص) .

ولكن نقل هذه التجربة الى مجال مجتمع صناعي حديث له عواقب خطيرة وضارة . ان الإساس الاخلاقي للاشتراكية امر مختلف تماما وهو اشد تعقيدا من تمرين صبي الحداد والنجار .

ان نجاح الاشتراكية مرتهن برغبة الشعب الواعية في المشاركة في الانتاج وتطوير المجتمع . ولذا تصبح مسألة الثقة في الشعب واحترامه ، الثقة بانه قادر على فهم مصلحته والتطوع اختياريا لخدمتها هي الاساس الذي لا غنى عنه للمجتمع الصناعي الاشتراكي .

لهذا السبب علينا الا نقتصر على تربية مهارات الشعب ولكن علينا ايضا ان ننمي عقله . ان الاهتمام بالمهارة دون العقل يقترب بنا من الفاشية الايطالية والاسبانية .

ونظرتنا الى التراث يجب ان تعبر عن المفهوم الاشتراكي الحقيقي. ان علينا ان ندرسه بروح موضوعية علمية فلا نجعل الشعب يتحمس لبعض الشعارات الاشتراكية بواسطة تعسف بعض الحقائق ولكن لهدف اكبر واهم من ذلك وهو توعية الشعب ، واعطاء الشعب الامكانية لان يراجع نفسه فينزع عنها العناصر اللاعقلية الكامنة فيه ..

ان خلق القدرة على النظر الشامل عند الشعب هي التي باستطاعتها ان تخلق النموذج الذي يستطيع ان يبني الاشتراكية وان يحميها لان قدرة الانسان على السيطرة على الطبيعة وعلى ظروف حياته مرتبطة الى حد كبير بدرجة وعيه .

لقد دلت التجربة ان باستطاعتنا ان نبني مجتمعا اشتراكيا متطورا في اشد البلدان تخلفا ـ كما يحدث في عدد من بلدان افريقيا حاليا ـ اذا وفرنا الوعي للشعب .

ان العصر الذي كانت فيه ظروف البلد الداخلية هي العامل الوحيد في تغييره قد انتهت واصبحت خبرة وتقدم البلدان الاخرى عاملا ذا اهمية متزايدة في التطوير الداخلي . ان الاستفادة من العامل الخارجي تتطلب تفتحا واعيا من جانب شعب البلد المتخلف .

القاهرة — غالب هلسا

مؤلفات جان بول سارتر

صدر منها	ق. ل
● سن الرشد ترجمة سهيل ادريس	٥٥٠
● وقف التنفيذ ترجمة سهيل ادريس	٦٥٠
● الحزن العميق ترجمة سهيل ادريس	٥٥٠
● الغثيان ترجمة سهيل ادريس	٤٠٠
● قصص سارتر ترجمة سهيل ادريس	٣٥٠
● البغي الفاضلة وموتى بلا قبور ترجمة سهيل ادريس	٢٠٠
● تمت اللعبة ترجمة مجاهد ع. مجاهد	٢٠٠
● عاصفة على السكر ترجمة عايدة مطرجي ادريس	٣٠٠
● محاورات في السياسة ترجمة جورج طرابيشي	٢٠٠
● سيرتي الذاتية ترجمة سهيل ادريس	٣٥٠
● الاستعمار الجديد ترجمة عايدة وسهيل ادريس	٤٠٠

قريبا جدا

- مسرحيات سارتر
- بودلير
- الوجود والعدم
- ادباء معاصرون
- نقد العقل الديالكتيكي
- فلسفيات
- قضايا الماركسية
- جينيه هزليا وشهيدا